

ابخرة كونت سحابة بورتسموث



لم تقبل هذه السحابة من أفق قريب ، ولم تظهر في الجو ظهوراً مفاجئاً ، ولكنها تجمعت من أبخرة شتى في آفاق غير منظورة ثم اقبلت تسمى في الافق من بعيد على مهل رويداً رويداً صادرة عن صنعة قدرتها تقديراً لتبلغ بها الحصب الذي شاءته من رذاذ نافع لا من وابل غامر ، ولكن الرياح لم تجر بامرها ، ولم تخضع لارادتها ، فاذا هي تهيج وتعصف في هبوب فاجيء افسد على الصنعة غزلها ، ورد السحابة قطعاً منشورة لا تصلح لرذاذ ولا لوابل .



تلك هي (سحابة بورتسموث) التي نريد ان نتحدث عنها في هذا الكتاب محاولين ان نورخ بها حياتنا الحاضرة ، ونسائر هذه

القافلة السائرة .

ولا احب ان يؤثر عني حديث مبتسر مبتور قليل النفع . لذلك لن اقتصر من وثبة العراق في كانون الثاني سنة ١٩٤٨ على كشف هذه السجاية دون ما يتصل بها من عوامـل نشئها ، وعلاقات تكوينها وما يرتبط بها من الاحداث الدائرة على محورها دوراناً لا ينفك عنها بحال من الاحوال .

فمعاهدة بورتسموث وما اثارته في العراق من غليات انضج الوعي المتطور الواثب حادث انبعث في حشد من الاحداث المتشابكة المترابطة على نحو يبين فيها النقص حين يسقط أحدها من نسقها المسبوك ، فكيف إذا اسقطناها جميعاً وابقينا منها واحداً من الوسط ؟ انه - اذن - عمل تافه شأنه يستحق عقاب المثلة ، ولا يليق بغير مجرمي المؤرخين او أغبيائهم الذين يجردون الاحداث من عناصرها وأسسها ظناً منهم ان الحادث ، يستطيع ان يستقل بـ (الوحدة) عن تلك المقدمات والاسس التي تتألف منها عناصره .

والحديث عن (سجاية بورتسموث) وحدها لا ينفع هذا العصر فضلاً عن العصور القادمة ، وان شئت فاسأل من تظن بهم الخير من المتتبعين فستجدهم على الاكثر لا يعرفون من هذا الحدث الفريد الا ظاهراً من الامر ، وتلك معرفة تقصر عن ادراك القيمة الصحيحة لهذه الوقفة الشعبية الخالدة المتقدمة بالتطور العربي اجيالاً عدة إلى الامام .

فالمتحدث عن هذه (السجاية) - بحكم ذلك كله - ملزم

بالتحدث قبلها عن اشياء تقع في اسسها وعناصرها فاذا لم يفعل فقد جاء حديثه ناقصاً منقصاً للواقع ، شائهاً مشوهاً للحقيقة ، قاصراً مقصراً عن نفع هذا العصر فضلاً عن العصور القادمة ، وعن موازنة الحادث العبقري فيما احدثه للعراق ثم للعرب ثم للشرق كله من مجد ، وكرامة ، ووجود .

ونحن من هذه العناصر أمام ثلاثة ان استغنيانا عن غيرها فلا نستغني عن واحد منها كي نتبين ملامح هذا الحادث بوضوح .
وارل هذه الامور: صلة الحادث بالسياسة الشرقية ، لأن إغفال هذه الصلة انما هو اهمال لا قوى عوامل الحادث المتصلة بالمطامع الاجنبية الطامحة الى منابع البلاد العربية وكنوزها وارزاقها .
والثاني : استعداد العراق للتطور ، لأن معنى اغفال هذا الاستعداد انما هو اهمال لقيمة الوثبة العلمية ، وتقبلها تقبلاً (امياً) لا تعمر بعده إلا قليلاً .

والثالث خطوات الحادث التاريخية والسياسية ، ومنها ينبثق ميدان الصراع يتبارز فيه (الطامع) الذي هو الاستعمار ، والمتطور الذي هو العراق ، ذاك بدهائه وشرهه وتحايله ، وهذا بايمانه ووعيه وحذره .

صلة الحادث بسياسة الشرق

لم تكد الحرب العالمية تضع اوزارها بعد مصرع النازي ، وانهباء عاصمته برلين حتى نهضت من تلك الخنادق حرب أخرى لا تقل أهمية ولا خطراً عن الحرب التي هلك الناس لانتهائها

وكبروا ، وكان من الطبيعي ان تستشري الحرب من جديد بين
الغالبين فقد كانت تدعو اليها اسباب كثيرة أهمها التنازع على
الاسلاب والغنائم من جهة ، والتنافس (المبدئي) من جهة أخرى .
ولئن كان ذلك كامناً ابان الحرب في ثنايا الانشغال بخطر العدو
المشترك فقد كانت جذوره قائمة فاهضة ماثلة يلمسها كل من الحصين
في سريره ويطوي عليها كشحه منتظراً الوقت المناسب لاعلانها .
ومن هنا يادر كل من الحصين في اولى الفرص الى معالنة
خصمه بما في نفسه ، واقبلا يتلا كان بشراسة وعنف سراً وعلانية
ويتساو مان في مؤتمرات برلين وموسكو وباريس ومان فرانكفورت
ونيو يورك وغيرها بشره أدى الى فشلها وجرهما وجرّ العالم
وراءهما الى توقع حرب وشيكة ربما كانت على الابواب ان لم
تتدارك بالحلول والترضيات المقنعة .

ومن دواهي الحرب الجديدة او العصر الجديد ان الصراع بين
دولتين اتسع اتساعاً مدهشاً حتى كان معناه الصراع بين الدول
جميعاً ، فلا تستطيع دولة في شرق أو غرب ولا في شمال أو جنوب
ان تعتمص او تنحاز او تتجنب الشرارة حين تلمع في فاحية من
بقاع هذه الكرة .

وكان هذا من المكاره التي جرّها العلم الحديث والتقدم
الفكري الهائل الذي جعل من الارض العريضة كفة حابل ، ولو
اكتفى البشر بنعمة هذا العلم واستغنى عن بعض نزواته لكانت
الجنة وفيها متسع للجميع .

ومهما يكن من امر فقد نشبت حرب فكرية على هذا النحو

بعد مصرع (بولين) تأشب فيها الصراع بين معسكري الروس والانجليز اميركان .

ثم كان الشرق أحد الميادين التي تعرضت للفتحات هذه المنافسة المستفحلة بين الروس والانكليز . نعم لقد كان مفروضاً ان هذا الشرق منطقة انكليزية وسوق محتكرة لمطامحها ومطامعها ومصدر من مصادر قواها وثرائها الخالصة ، غير ان الحرب العالمية بدلت الحياة غير الحياة وابطلت تلك المقاييس المدرسية البالية فأحدث محل كل قديم جديداً بفهمه ومصادقه جميعاً ، لذلك جاز لروسيا ان تنافس ، وجاز لنا نحن الشعوب الصغيرة ان نستعين به — هذه المنافسة على التحرر والاستقلال بالمقدار الذي ينجيننا من هؤلاء وهؤلاء جميعاً .

وهكذا بدأ التوازن يتكافأ في الشرق ، وبدأ الشرق يستيقظ ولكن حرص الانكليز على الاستعمار وقوة تشبثهم أملياً عليهم — الاستمرار وان حاروا كيف يستمرون كما سنوجزه فيما يأتي من كلامنا .

أما العراق .. فقد دفعه سوء الحظ إلى أن يكون جزءاً آمن هذا العالم ، ثم دفعه الحظ السيء إلى أن يكون بلداً من بلدان الشرق المتعرض لحنة هذه المنافسة ، لذلك لم يكن وحده واقعاً في طريق الحرص البريطاني وانما كان حلقة من السلسلة التي تريد بريطانيا أن تجعل منها هيئاً ثميناً تشد به وسطها من الناحية الاقتصادية وبمكانة قوية تتسلح بها من الناحية الحربية ، وانها لتأمل بعد امتناع مصر وتحصنها بالمنافسة الراهنة بين المعسكرين الكبارين

عن الاستجابة لمطالب (دفاعها المشترك) ، ان يكون العراق حجة لها على مصر وعلى غير مصر من اقطار العرب اولاً والشرق ثانياً فيما تصبو اليه من كبح جماح هذه البلدان بمعاهدات تحطم بها اناث الشعوب .

هكذا بدا لها ان تبدأ بالعراق على اعتبار انه قطر معروف بقوة الشكيمة ، وتبرع لها اصدقاؤها المفتونون من ابنائه بتحقيق هذه الامة . فبدأت من يومئذ تعد العدة وتتهيأ .

وكانت محتاجة في الواقع - من ناحيتها - الى تدبير كهذا لأن النفوذ الروسي أمعن في (العالم) إمعاناً عظيماً ، واقتحم البلاد المقدسة وانفها راغم ، فهي منه ازاء أمرين لا امر واحد ، وهما طرد هذا النفوذ اولاً ، وجعل الشرق جداراً في وجهه ثانياً ، فاذا تخلصت منه في الأمر الاول فانها محتاجة إلى تجنيد الشرق ضده في الأمر الثاني .

هذا اذا تطورت الأمور العالمية وصارت إلى حرب ثالثة . وهي إذا تطورت الأمور او انتهت إلى سلم محتاجة في الحالين إلى سحق النفط واكتشاف الكُنوز المتوهجة في اعماق الارض العربية . وانها خرافة من اسخف الخرافات ان تجلو عن هذه الجنان وتترك معادنها المتألقة دون أن تنقل من خيراتها ما يمتنع لندن بالرخاء والبلهنية والنعيم .

وعند هذه النقطة يتجاوز الامر في المنافسة حدود الروس ، إذ ظهر لها ان اميركا هي الاخرى تزاوحها على بلاد العرب ، وتجد في هذه المزاومة حتى تنشئ مصانعها على صدر الحجاز وتمد انابيبها من

تخوم الصحراء إلى شواطئ الأبيض المتوسط .
انه لهول ارعد فرائص الانكليز وهز اركان الاروقة في
وزارة خارجيتها .
وانه لحادث ماق عليها من جنبها عدواً هي له أشد خشية
منها للروس .
ضع هذا في يدك الآن فسنحتاجه بعد قليل بعد أن نتحدث
عن قابلية العراق للتطور ، وما لها من خطر وتأثير على سياسة
الانكليز في هذا الموقف الدقيق الحرج .